الجنوب ومعضلة الأيديولوجيا

قراءة في التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري الجنوبي والأثر المترتب على تماسك الهوية الجنوبية

"الأمناء" تحليل/ بدر العرابي:

(١)

ثمة رواسب أيديولوجية قارة في الطبيعة النفسية الجمعية الجنوبية تحول دون استقرار الموقف الجمعي تجاه ما يحيط بنا كأمة لها هويتها وثقافتها وأحلامها وطموحها وطريقة تفكيرها سياسيا وثقافيا واجتماعيا .

تتمثل تلك الرواسب في تنوع مصادر الأيديولوجيا، بمعنى آخر تعدد الأيديولوجيات التي تناوبت على البنية الاجتماعية والفكرية ؛بفعل تعدد الوصاية السياسية على مدى التاريخ الجنوبي ،يضاف إليها التلاقح الثقافي والفكري مع مجتمعات وهويات فرضها الموقع الجغرافي والطبيعة الساحلية التي سمحت بعفوية بتسرب ثقافات مجتمعية واردة، وجدت قبولا اجتماعيا وبطريقة غير مرشحة أو مفلترة ،نظرا لعدم الاستقرار السياسي والفكري والاجتماعي، على مدى تاريخ الجنوب.

فالاستعمار البريطاني وعلى مدى 129عاما بغض النظر عن الأهداف التي رسمها في إبقاء الجنوب تحت سيطرته_ استطاع أن يغرس ثقافته في قطاع لا بأس به وخاصة في العاصمة عدن، بما فيها من خليط ثقافي، بينما ترك المناطق المترامية جغرافيا، بعيدة عن التنمية الثقافية المتوافقة مع الثقافة الحضرية والمدنية في عدن ،مما خلق تلون ثقافي وأيديولوجي يشتد أحيانا ويتجه نحو المصادمة الفكرية والثقافية غير الحميدة أحيانا.

ثم تأتي عاصفة مستجدة، تمثلت في الارتباط الأيديولوجي بالمنظومة الاشتراكية، التي ركزت أكثر ما ركزت، على التحول الأيديولوجي الشكلي ردحا من الزمن ،هذا الارتباط الطارئ وغير المنظم أيضا ،أحدث نوعا من الشروخ الاجتماعية والثقافية في البنية الفكرية والأيديولوجية الرخوة التي ورثناها عن الاستعمار البريطاني، ولم تمكث أيديولوجية الاشتراكية كثيرا ،فانهيار المنظومة الاشتراكية، أحدث اضطرابا جديدا عصف بالاستقرار الثقافي من جديد وأضعف مداميك البنية الفكرية ،وقد لعب ذلك، دورا بارزا في ظهور حالة جديدة من الاضطراب الفكري الجمعي الجنوبي ،وظلت الثقافة والفكر الجنوبي مشتتة نيئة التشكل، ومحتفظة بالتنوع الثقافي السابق، الذي يفتقد التوافق الثقافي والاجتماعي، ثم السياسي، الذي يترجم عدم التوافق، من خلال جولة تصادم جديدة، بين النخب السياسية والعسكرية.

تأتي الوحدة اليمنية بأيديولوجية المنظومة السياسية المشوهة سلوكيا واجتماعيا وفكريا ورجعيا ،والتي لا تملك أي معادلة ثقافية جديدة، بقدر ما تملك طموحا استباديا برجماتيا رجعيا متخلفا ،وحينما أحس الجنوبيون بفداحة الأمر وبوقت مبكر _لجأوا وبشكل غير واعي _إلى الإبقاء على التنوع الأيديولوجي الثقافي السابق رغم رخاوته ووهنه وعواقبه .وظلت طريقة التفكير الجمعي على وهنها ،و إلى يومنا هذا لم نلمح أي استقرار فكري على المستوى الجمعي ،وكذلك على مستوى التفكير الفردي، وهذا بدوره أدى ويؤدي إلى عدم التوافق على رؤية سياسية مرجعية، مستندة على الفكر الجمعي، وعطفا على ذلك تستديم ظاهرة الضعف لدى النخب السياسية الجنوبية في ممارسة العمل السياسي، وهنا تتجسد ذروة إفرازات المعضلة الأيديولوجية.

في الطرح السابق تناولنا تناوب المصادر الأيديولوجية بفعل الوصايات السياسية المتناوبة على الشعب الجنوبي ،وعدم قدرة الأوصياء المتعاقبين على تأصيل ثقافة وفكر مجتمعي ثابت ومستقر والآثار التي ترتبت على ذلك ،كإحداث فكر مضطرب استقر في الذهنية الجمعية الجنوبية، وقد أفضى ذلك إلى ترسب ملامح أيديولوجية نيئة، إذا ما نظرنا للفكر والثقافة الجنوبية من الخارج أو من العلو ،وقد عكس ذلك نفسه في بلورة نخب سياسية غير فاعلة توالت على حكم الجنوب، وكانت العفوية والارتجال سمة ملازمة لمنهج حكمها ،وقد أفضى ذلك إلى انتكاسات متوالية للدولة الجنوبية، آخرها الارتماء إلى الوحدة اليمنية، وكانت تلك هي النكسة القاضية.

إن عدم استقرار الجانب الأيديولوجي وعدم رسوخه، وعدم قدرته على تغطية جغرافية مجتمع ما، سيخلق كثير من العثرات والعقبات أمام أي مجتمع، ولعل الخطأ الفادح الذي رافق الجنوبيين على مدى تاريخهم هو عدم اعتماد مداميك ثقافية وأيديولوجية (منظومة مبادى) موازية لنظام الحكم السياسي الصلب وعدم استغلال العشق الشعبي غير المحدود للنظام والدولة وثقافة المدنية، واستغلال الحضور المتواتر للنظام والقانون في الفكر الشعبي الجنوبي ؛؛مع إضافة تلك العوامل إلى غياب الثقافة الموجهة من الأنظمة السياسية المتوالية في حكم الجنوب_كل ذلك، أبقى على الملامح الأيديولوجية المتعددة ،غير المتماسكة، والتي غالبا ما تفضي إلى احتدام الصراع بين النخب العسكرية والسياسية، في أي موقف أو منعطف سياسي.

كما إن انحسار الثقافة المدنية والعصرية على العاصمة عدن دون رؤية فوقية لتلقيح البيئات الجغرافية الجبلية شمال وغرب وشرق عدن، ودون دمجها في المدنية، جعل هذه البيئات أكثر خشونة وسطوة وجعلها تبحث عن مرجعية ثقافية تقليدية تجسدت في ثقافة المناطقية المقيتة ،فتحول الصراع الاجتماعي والسياسي إلى صراع تحركه المناطقية ولعلنا نتذكر جيدا الصراع المناطقي الذي أفضى إلى عدد من النكسات والانقلابات والتصفيات المناطقية التي آخرها الحرب المناطقية على الحكم في 13يناير 1986م.

ومايزال غياب المرتكزات الثقافية والإيديولوجية، يفعل فعلته في الذهنية الجنوبية، ولعل من أهم مظاهره، ذلك الشطط والتطرف للفعاليات السياسية الجنوبية التي تشكلت منذ عام 2007 حتى يومنا هذا ؛فمعظم الإتجاهات تجمع على حل الوحدة واستعادة الدولة الجنوبية، لكنها كلها تحتفظ و بقوة بسلوك الإقصاء والإلغاء للآخر وتتطرف لرؤيتها أيما تطرف، ولعل أسوى ما أصاب القضية الجنوبية، هو تلك المعضلة التي تفرط بها الفعاليات السياسية الجنوبية، ولولا الإجماع الشعبي الجنوبي و تمسكه بقيم العدالة والحرية ورفضه لفكر المنظومة السياسية الاستبدادية الشمالية ورغبته في الانعتاق والخروج من منزلق الوحدة اليمنية، لولا طموح البسطاء من عامة الشعب الجنوبي الملح في استعادة دولته ووطنه الجنوبي؛ لأفلت القضية الجنوبية وغابت وتلاشت بتلاشي وشطط الفعاليات السياسية الجنوبية.

خلاصة القول ولكي نضع مداميك وأعمدة ثقافية وإيديولوجية مستقاة من تميزنا وخصوصيتنا الثقافية المنطلقة من البنيات التاريخية الأصيلة والتي تمخضت عن التراكمات الثقافية التاريخية عبر الزمن والتي من خلالها نستطيع أن نقنع العالم بأن لنا هوية ضاربة في التاريخ وأن لدينا خصوصيات ثقافية تتضاد مع الثقافة الشمالية وأيديولوجية تتضاد مع أيديولوجية المجتمع في الشمال ولا تنتج سوى عدم التعايش والحروب_لكي نضع هذا التصور للعالم ؛فلابد من إيجاد محطة التقاء تطل من علو على الجذور الثقافية المميزة لنا كشعب والتي من خلالها نستطيع استعادة هويتنا التاريخية التي لاشت ملامحمها الوصايات السياسية التي تناوبت على حكمنا عبر الزمن.

سأحاول في تلك الجزئية من المقالة استدراك بعض الثغرات التي تخللت الجزئيتين السابقتين ،وفك ما أبهم على القارئ ،وأتدارك الترهل النظري السابق، من خلال استدعاء بعض الملامح التطبيقية من التاريخ السياسي الجنوبي الذي سيظهر من خلاله أثر غياب وعدم وجود مضامين أيديولوجية في المشهد السياسي الجنوبي ،وكيف حال ذلك دون وجود نخب سياسية جنوبية فاعلة وقوية الرؤية، وسأرفق بطرحي هذا مقارنة بين الشمال والجنوب من حيث البنية الثقافية مبرزا تفوق النخب السياسية الشمالية وأسباب هذا التفوق وارتباطه بمنظومة المبادئ.

من المبهمات في طرحنا السابق هو مصطلح (الأيديولوجيا) ولم يكن استخدامنا له إلا كمصطلح موازي للمنظومة التاريخية والثقافية والاجتماعية لأي أمة ومن خلال تلك المنظومة تتحدد الهوية له ا. خلصنا سابقا إلى أن غياب منظومة المبادئ وعدم استقرار الجنوب على مرجعية تاريخية ثقافية تحدد طريقة التفكير والسلوك الاجتماعي في إدارة الفعاليات السياسية _كان سببا رئيسا في انعدام وجود الوفاق السياسي ؛فالعمل السياسي في الجنوب وعبر مراحل التاريخ وخاصة في إدارة التباينات السياسية، لم يكن يتكئ على منظومة مبادي، يمكن أن تعد بمثابة ثوابت، يحضر على أي فصيل تجاوزها، بل وتمثل سقفا تقف عنده الشطحات الارتجالية التعسفية للفصائل، ومن ثم يبلغ فصيل معين مبلغا يحاول فيه نسف وإلغاء الفصيل الآخر وتخوينه وتجريده من الانتماء الوطني ؛لذلك حلت كثير من الألفاظ والمصطلحات السياسية التي يطلقها الفصيل المنتصر وكذلك المهزوم، كالمندس، والعميل ،والخائن والطغمة والزمرة ...إلخ وقد تمدد ذلك السلوك بفعل تغييب منظومة المبادئ القيمية والثقافية حتى اللحظة، و من ملامحه ذلك التباين السياسي غير المقنن بين فصائل الحراك السياسي السلمي، في الوقت الذي بلغت القضية الجنوبية مبلغا متقدما من النضوج السياسي والجغرافي والتاريخي ،ومن ثم سيظل عدم الوفاق صفة متلازمة مع أي حراك سياسي جنوبي مالم يتم الاتفاق على منظومة مبادى وقيم يحضر تجاوزها لأي فصيل سياسي كان أو اجتماعي أو ثقافي، وفي نهاية طرحي في هذه الجزئية سأجتهد لوضع ملامح منظومة المبادئ والقيم التي يفترض أن تعد مرجعا يحضر تجاوزه.

ونظرة سريعة للبنية الثقافية الشمالية القائمة على منظومة مبادئ قيمية راسخة عدت على مدى التاريخ ثوابتا يحضر تجاوزها مهما كان الصراع السياسي، تتمثل تلك المنظومة بثلاث مرجعيات تأصلت في الفكر الشمالي كحائط صد لأي نزق فئوي أو سياسي مما يجعل الوفاق الجمعي كائنا مهما اشتد التباين ،تلك المرجعيات تنشط بتواتر وبتواتر لتصد أي انحراف سياسي ،ومن ثم سيفضي ذلك إلى كبح حدة التوتر والتشتت .وتتمثل تلك المرجعيات الثلاث في(القبيلة)و(الرأسمال) وثقافة (الجهوية) المستحدثة، تلك المرجعيات الثلاث جعلت الذهنية الجمعية مستقرة وثابتة ومنحت الساسة الشماليين كنترولا تترشح من خلاله حالات النزق الفردي والسياسي، مما يسمح لطريقة تفكير ضاربة في التروي والتأني ، ومن ملامح ثبات تلك المرجعيات في الذهنية الجمعية الشمالية :التكتل القبلي والجهوي والرأسمالي الشمالي في حرب 94الجهوية ،الذي اتفقت فيه الفعاليات السياسية والاجتماعية والدينية على أنها حرب مقدسة لدفع الردة والإنفصال، وقد أتفقت كل البنى السياسية والاجتماعية والدينية والقبلية رغم الخلاف السياسي الناتج عن التعددية السياسية.

كذلك من ملامح الوفاق الشمالي الدال على تناوب المرجعيات الثلاث أن يصرح رئيس حزب سياسي بأنه سينتخب (صالح) رئيسا في الانتخابات الرئاسية على الرغم من حدة التباين السياسي بين الحزبين السياسيين، وقد برز ذلك من خلال تصريح (عبدالله حسين الأحمر) رئيس التجمع اليمني للإصلاح المنافس للمؤتمر الشعبي العام ،ومن أعجب الوفاقات التي أفرزتها المرجعيات الشمالية ما برز من توافق بين (صالح)و(الحوثي) مؤخرا وعلى الرغم من إدارة (صالح)لستة حروب التهمت الأخضر واليابس وخلفت دمارا ظاهرا في الجغرافيا والإنسان معا، كذلك فمن خرج وأريق دمه في ساحة التغيير ينادي بإسقاط صالح ورحيله أو محاكمته ،بين ليلة وضحاها يصك اتفاقا مع (صالح) للشراكة السياسية والاصطفاف في موقف واحد ضد الشرعية ،ومن أهم ملامح الوفاق المحيرة ذلك التهادن العجيب بين السلفيين والحوثة الذي تجلى بصك إتفاق محبة ووداد بين الحوثة(الزيدية الشيعية) و(والسلفية الشمالية).

خلاصة القول فأنه من المنطقي عدم وجود وفاق ونقاط التقاء للفعاليات السياسية الجنوبية، دون وجود منظومة مبادى تاريخية ثقافية اجتماعية ،وسيظل الجنوب ككيان جغرافي هش البنية واهن الفكر الجمعي، مشتت البنى حتى يتم الاتفاق على منظومة مبادى وقيم ثقافية وسلوكية فردية كانت أم جمعية، تمثل حائط صد للشذوذ السياسي الناتج عن تصاعد التباين وتحوله إلى صراع يحتدم تدريجيا ليحبط الطموح الشعبي في الحرية والتحرير.

ثمة ملامح لمرجعيات ثقافية يمكن أن تشكل منظومة مبادى ثقافية وفكرية إذا ما توفر الإجماع الجنوبي عليها ،وترسخ حضر تجاوزها في الذهنية الجمعية الجنوبية ويمكن إجمالها فيما يلي:

1_الصراع المناطقي على السلطة على مدى تاريخ الجنوب كقيمة سلبية أرقت الجنوب بكل المراحل التاريخية ،ولتكن آثاره في تفتيت البنية الاجتماعية _منطلقا لنبذه من خلال قناعات جمعية في الذهنية الجنوبية.

2_الاتكاء الجمعي على مبدأى(التصالح والتسامح) باعتباره المرجعية الرئيسة والبوابة المنظمة للدخول في حالة مستديمة من الوفاق الاجتماعي والسياسي والفكري.

3_الخلفية الثقافية الفكرية الشعبية لمفهوم الدولة والنظام القانون.

4_التنوع والتعدد الثقافي للمور د البشري في العاصمة عدن باعتباره أنموذجا مرجعيا للتعايش المستقر.

5_الخصوصيات الثقافية المترامية جغرافيا على امتداد جغرافيا الجنوب والتي من خلالها يتم إعادة تشكيل ملامح الهوية الجنوبية العامة عبر الهويات الجزئية، كالهوية العدنية المدنية والحضرمية والمهرية والسقطرية، وكل امتداد اجتماعي متميز ،وإعادة صهر كل تلك الملامح في ملمح واحد.